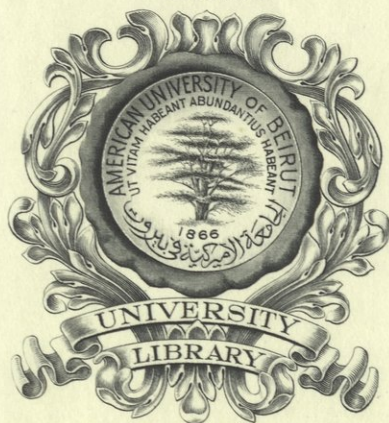
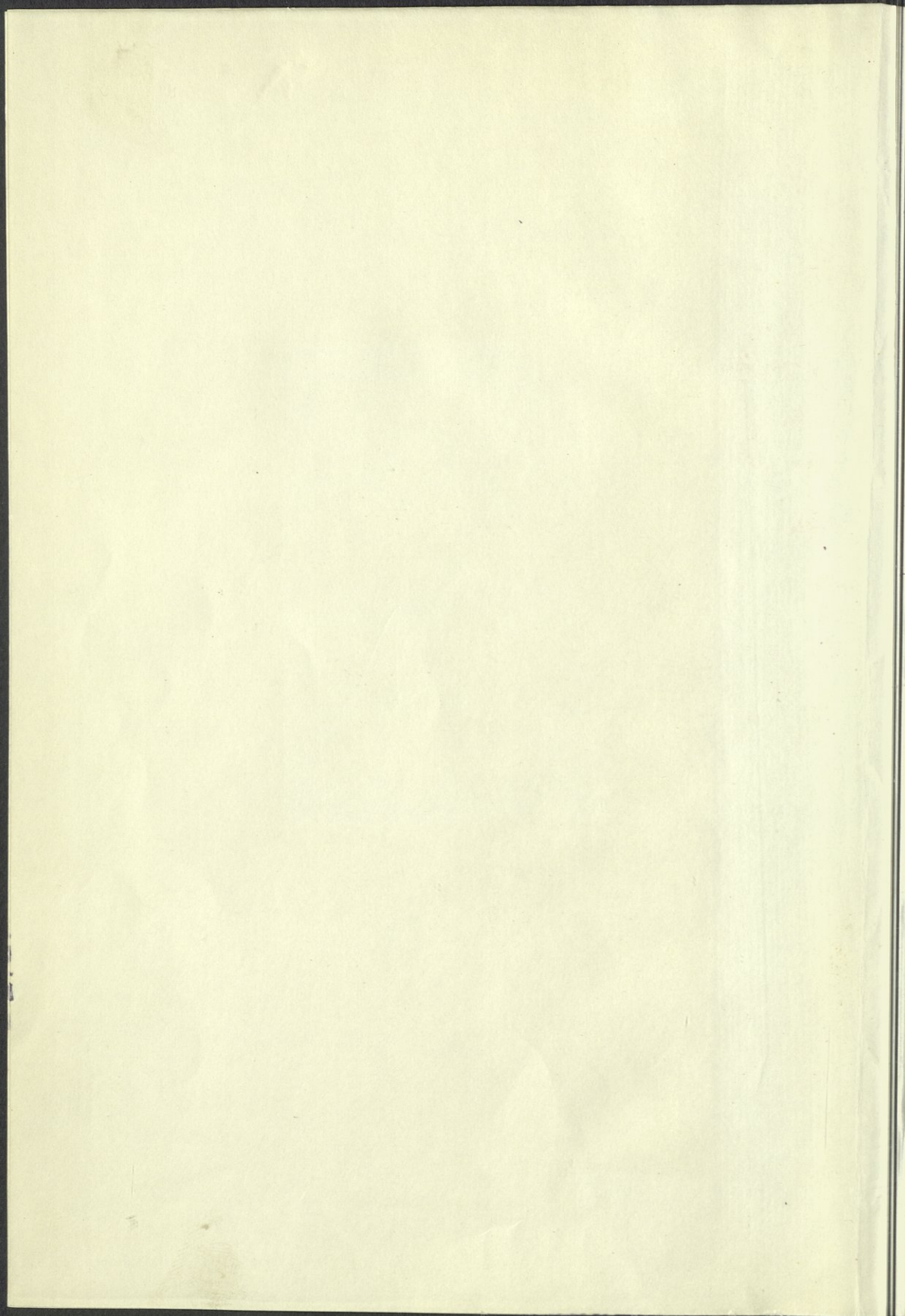
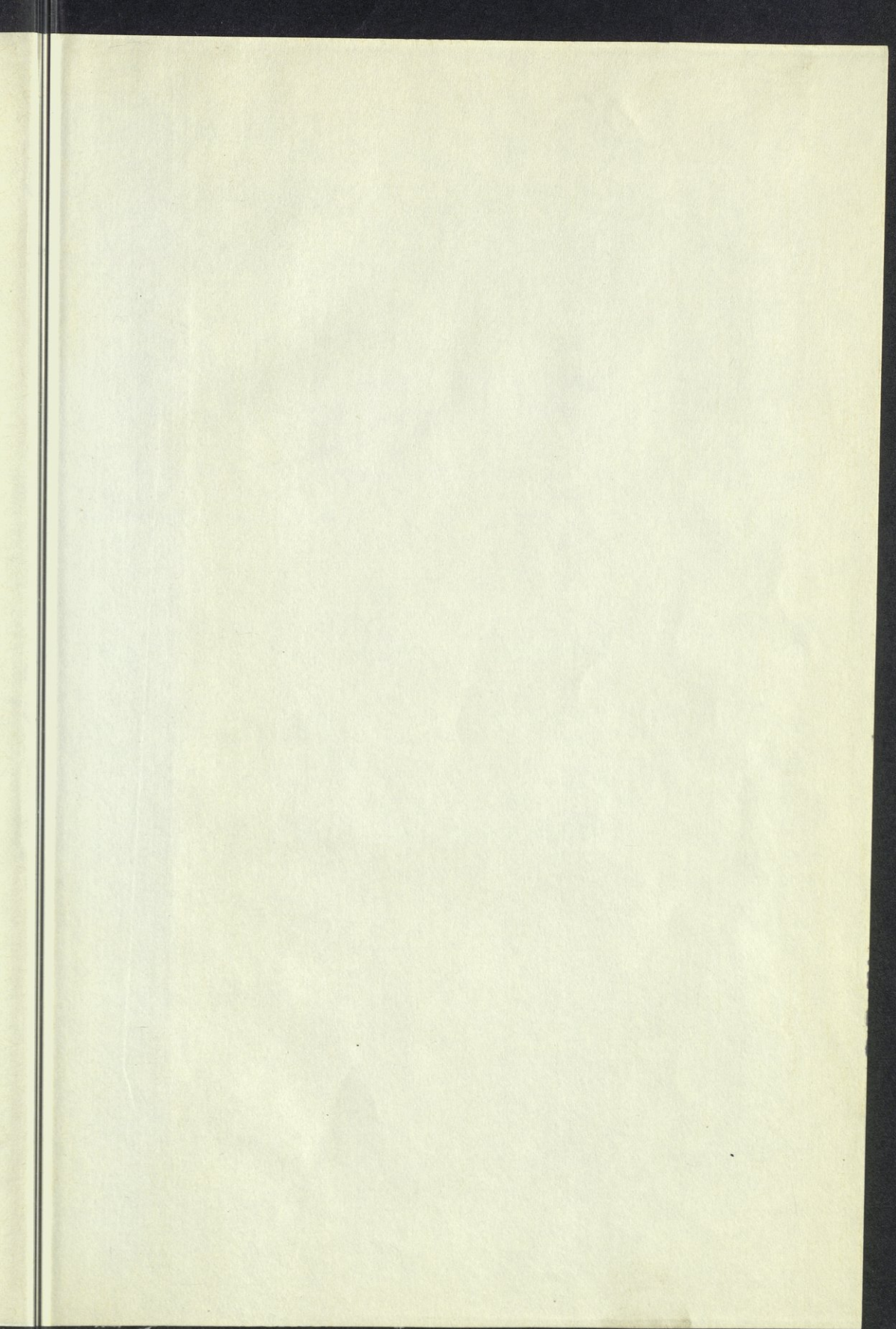




AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT







امین الزعابی

١٩٢٨

١٩٢٨

١٩٢٨

Q. 11 - 1000000

0 4 1



892.78
R26YKa

892.78
R572YKA
C.1

X

امين الريحاني

بقلم

سامي الكينالي

١٩٤٨

المطبعة المارونية
قلم

Cat. Jan. 12. 54



یہ کتاب زید

راویان

۸۳۴۱

کتابخانه

من أدباء العرب المفكرين الذين كان لهم مقام مرموق بين أدبائنا المعاصرين
 المرحوم أمين الريحاني ، وقبل ان اتناول سيرته اريد ان اقول كلمة عن أدبنا
 المعاصر ، واذا أقول الادب المعاصر اريد هذه الصيحات التي يرسلها الادباء
 وتفيض بها قلوب الشعراء من أدب وجداني الى مقالات منشورة في ظواهر الحياة
 والمجتمع ، الى دراسات تتناول حياتنا العقلية وتبحث أدبنا في ماضيه وحاضره ،
 الى شعر يصور هذه الهجسات القومية ، والتأملات الذاتية ، الى غير ذلك من
 الصيحات والنفحات .. وكما كانت هذه الهجسات والتأملات في الماضي ، وفي
 مختلف عصور الادب ، صورة حية لتراثنا الادبي ، فهي اليوم بشق الوانها ،
 تؤلف هذه الصورة الواضحة من أدبنا المعاصر .. ولست من رأى بعض الادباء
 الذين يقولون ان أدبنا لا يمثل حياتنا . لا .. ان هذا الادب على اضطرابه
 وضعف بعض الوانه يصور هجساتنا ونزعاتنا اصدق تصوير .. وهو اليوم أقوى
 منه بالامس ، ولا يتسع المقام هنا لان أشير الى التطور الذي بدأ من نهاية
 القرن الثامن عشر الى اليوم ، فقد مر أدبنا ، خلال هذه الفترة الطويلة ،
 بعوامل مختلفة ، منها سياسي ومنها اجتماعي . ولكن حمبي ان اقول ان اتصال

الغرب بالشرق ثم ظهور المطبعة كعامل قوي في نشر الفكر ، وغزوة نابليون
لمصر ، والبعثات العلمية التي أرسلها مؤسس الاسرة العلوية الى اوربا — ان
هذه الظواهر التي يبحثها مؤرخو الادب باسهاب هي المراحل الاولى لبدء تاريخنا
الادبي ، ففي هذه الفترة ظهر افراد من مفكري العرب بعضهم تأثر بثقافة الغرب
وبعضهم بثقافة الشرق — وجميعهم قد أوتوا هذا الفيض الوجداني لبعث الامة
العربية وتحريكها من عمودية القرون المظلمة . نعم ، في هذه الفترة ظهر افراد
من مفكري العرب اخذوا على طاعتهم ان يعيدوا الماضي العربي بريقه واشعاعه ،
فقد قرأوا تاريخ الامة العربية ، وقرأوا ادبها الزاخر بالحكمة البالغة فرأوا ادباً
قوياً وأمة لعبت في تاريخ الحضارة اكبر دور وانطوى ماضيها على اجدد الصفحات . .
ثم رأوا هذا الادب يضعف ويهزل بضعف الامة العربية وتقلص سيادتها . وكان
بعض هؤلاء المفكرين قد قرأوا آداب الامة الحية ودرسوا تاريخ تطور الشعوب
وقارنوا بين نهضة الغرب وانحطاط الشرق وكيف يعين الاول بمجد وسؤدد
والثاني في ذل وعمودية ، فتألموا وكان الادب وسيلتهم للتعبير عن الهمهم وما
تشعر به الامة من ضعف . . وقد قادهم هذا الالم الى ان تبدأ الصيحات بنميه
المافلين ، وبسط المعرفة في جميع انحاء الشرق — من اولئك الذين آمنوا بثقافة
الغرب ولم ينكروا قيمة الخصائص العربية البستانيون واليازجيون والطهطاوي
والافغاني والشدياق وغيرهم من المفكرين الاحرار الذين كانوا اول من بذر بذور
الثورة الفكرية في الشرق العربي . . وقد ترك بعضهم آثاراً أدبية قيمة وظهرت
عدة رسائل في اغراض ثقافية محدودة واخذت دوايب المطبعة تقذف النشرات
والصحف ، وتمخض العالم العربي عن جيل جديد من المفكرين كان في طليعتهم
محمد عبده والكواكبي واديب اسحق والشميل وسليمان البستاني الذي عرب الياذة
هومبروس — وتعريب الياذة من الاعمال الادبية الفذة التي لم يظهر ما يوازها
في ادبنا المعاصر الى اليوم كأثر أدبي وان كانت الاستفادة منها مقصورة على

افراد قلائد جداً - كان هؤلاء المفكرين نزوات سياسية واتجاهات اجتماعية ترمي الى بعث الشرق وتحريره وخلق « الكيان العربي » كعامل قوي في تطور الشرق .. وهنا بدأت « العنصرية التركية » تذر قرنهما محاولة القضاء على هذه الروح الجديدة التي اخذ مفكرو العرب يوقظونها .. فانتبه الادباء لهذه الظاهرة الخطرة قبل ان ينتبه اليها السياسيون المندمجون في الكيان العثماني .. نعم ، انتبه الادباء لهذه الظاهرة واخذوا يرسلون صحفهم في جو مكبوت فأدى الادب رسالته من الناحية القومية دونما تبجح ، ومرر الشرق العربي ، في هذه الفترة ، بمراحل سياسية مختلفة ليس هنا مجال سرد عوامها - من « الشرقية الاسلامية » الى « القومية العربية » ، وكان شرقنا العربي يخطو خطواته الوئيدة ، يلتفت الى الماضي اكثر من اندفاعه الى الامام .. ومع هذا ، فقد بدأ الادب المعاصر مرحلته الثالثة من تصور هذه التيارات ، وهي ذات بواعث قومية ، فظهر جيل جديد عمل افراده جميعاً على بعث الامة العربية ذات الماضي الذهبي الجميل ، تذكر في طليعتهم محمد كرد علي وشكيب ارسلان ، ويعقوب صروف ، وجرجي زيدان ولطفي السيد وقاسم امين وفريد وجدي والزهاوي والرصافي وشوقي وحافظ والمطران وولي الدين يكن وغيرهم من رجالات الفكر الذين قضوا شطراً كبيراً من حياتهم يرسمون اهدى الطرق لسير هذه الامة وفك السلاسل التي احكم ربطها الحكم المستبدون على مر الاجيال وتعاقب القرون ..

وتبدأ هذه المرحلة في نظر مؤرخي الادب باعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، وكان امين الريحاني ، وهو في بدء نشأته الادبية ، بين هذه الفئة الثالثة من مفكري العرب والذين عملوا على تحرير الفكر العربي ورفع الغشاوة عن عين الامة العربية ..

ونتناول الان في كلمات موجزة سيرة هذا المفكر الحر ..

ولد امين اريخاني في الفريكة من قرى جبل لبنان ١٨٧٦ وما ان ترعرع حتى دخل مدرسة صغيرة تعلم فيها مبادئ العربية والفرنسية ، وفي العاشرة من عمره ، هاجر مع عمه الى نيويورك ، حيث درس هناك مبادئ اللغة الانكليزية ، ثم اشتغل بالتجارة خمس سنوات كان خلالها مثال الامانة والاقتصاد ، ولكن هذا الوسط لم يرقه ولو ظل يمارس مهنة التجارة لكان اليوم من كبار الاغنياء ، ولكن نزعته الريخاني الى الدرس هي التي صرفته عن اوتار المادة الى عالم الفكر واشراقه ، ورأى ، وهو تلميذ ، ان في ميدان الكتب هذه العوالم السحرية التي تطمئن نزعات الانسان وتزيد في ثروته في عالم الفكر ، وهي اسمى في نظره من كنوز قارون . .

واذ بدأ نشأته الدراسية في البلاد الاميركية ، كان من الطبعي ، ان تكون الانكليزية هي التي يحذقها قبل غيرها من اللغات . . وقد تمكن منها وهو في شرح صباه ، واجتذبه تأليف كبار شعراء الانكليز فشغف بكتب شكسبير ومسرحياته التي ولدت فيه ميلاً الى فن التمثيل ، فدخل ممثلاً في شركة اميركية وجال معها ثلاثة اشهر ، ثم ترك هذا الفن الجميل الى فن اجل — الى الادب الذي وهبه كل حياته .

بعد ان اتم دراسته الثانوية في المهجر دخل كلية نيويورك الفقهية . . فهل دخلها ليكون من علماء اللاهوت ؟ لا اعلم . . وقد مكث فيها سنة كان خلالها مثال الذكاء والاجتهاد . . ثم ترك الكلية لعوامل صحية فقد كان انكبابه على دروسه من العوامل التي اضعفت صحته فأشار عليه الطبيب بترك الكلية والرجوع الى الوطن لأن مناخ نيويورك لم يعد يلائم صحته

ad
O.K.

وفي سنة ١٩٥١ عاد الى الوطن ، وما ان استعاد محمته حتى رجع الى نيويورك،
وبقي ثلاث سنوات يكتب ويخطب بالانكليزية ، وقد نشر عدة مقالات في امهات
الجراند ، وخطب عدة مرات في اندية ومحافل اميركية ، وكان يود ان يعبر عن
آرائه بالعربية ، ولكن انسى له ذلك وقد اشرب قلبه منذ حادثته بكره العرب
والعربية ، يقول الريحاني :

« كنت في الثانية عشرة من عمري عندما سافرت المرة الاولى الى الولايات
المتحدة ، فلم اكن اعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والفرنسية، وما
كان في ذهني من العرب واخبارهم غير ما كانت تسمعه الامهات في لبنان —
صغارهم : هي ، جا البدوي ! والبدوي والاعرابي واحد اذا ارادت الام «ببعبعاً»
تخوف به اولادها !

« هجرت وطني وفي صدري اخوف ممن اتكلم لغتهم ، والبعض لمن في
عروقي شيء من دمهم .. والبعض واخوف هما توأما الجهل ! » .
ولكن أيسر الريحاني على الجهل لغته بعد ان حذق لغة قوم غير قومه ؟
واذا كانت البيئة قد قسرتة على ذلك ففي طبيعته هذه النزعة التي تشور على كل
ما هو غير واقعي ..

أيصبح الريحاني من شباب لبنان الذين يكتبون ويخطبون ويؤلفون بالانكليزية
وهو اللبناني العربي الذي يجهل لغة آباءه وأجداده ولا يحسن التعبير بها عن آرائه
وهو واجسه .

لا .. ان هذا يتناقض وطبيعة الامين ، لذلك قرر ان يدرس العربية وهو
في فجر شبابه ، وقد اختار الكتب اللازمة له .. ويذكر لنا هذه الكتب في
احدى مذكراته الخاصة فنعرف منها انه قرأ «بحث المطالب» ومقدمة ابن خلدون
ونهج البلاغة ومقامات الحريري والغرر وبعض كتب المعاصرين .

وكما قرر ان يدرس العربية فقد التفت الى دراسة حياة ابطال العرب ..
والفضل في ذلك لمطالعاته كتب السير في الانكليزية ، يقول الريحاني :

→ « كان كارليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب . أجل ،
وقد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب
الاكبر النبي محمد فأحسست لأول مرة بشيء من الحب للعرب ، وصرت اميل
الى الاستزادة من اخبارهم » .

في هذه الفترة من انغماسه في الافق الدراسي الذي فرضه على نفسه بعد ان
ترك الجو المدرسي كانت صحته تزداد سوءاً وكان لا بد من العودة الى ارض
الوطن مرة ثانية ، وفي عام ١٩٠٤ عاد الى لبنان ينشد الصحة والاستجمام وقد
كان لجمال وادي الفريكة الاثر الكبير في صحته وادبه وفلسفته . فارتقى في احضان
الطبيعة يستجلي اسرارها ويسكر من عبق زهورها وجمال اشجارها ، وأخذ يكتب
آرائه ، في هذا الجو المفعم بالنغم بأسلوب شعري مرقص ، ومرت حياته ، في
هذه الفترة ، بين المطالعة والاستمتاع بجمال لبنان الطبيعي . نعم ، كانت ايامه
تمرّ بين انوادي والبيوت ، وبينما هو يلب في خزانة ابيه اذ عثر على نسخة من
ديوان ابي العلاء ، فقرأه باعجاب ، وراقته فلسفته ، فترجم طائفة من آرائه في
اللزوميات الى الانكليزية ، وصاغها رباعيات متأراً رباعيات الخيام ، وهنا يحدثنا
كيف ان العربية اخذت تحتضنه بعد ان نشأ على كره العربية :

« عدت الى بلادي كثيراً ... وكنت لا اعرف من لغتي وآدابها غير
المسير اليسير ، فتغلغت في سراديبها دون ان ارثي لحالي ، وبينما انا اتخبط في
دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي وسيميويه وكل من علم حرفاً
في البصرة والكوفة . جمعني الله سبحانه وتعالى بأبي العلاء المعري بعد ان هديني
واسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي . قرأت اللزوميات معجباً بها ،

ثم قرأتها مترنماً ، ورحلت أفاخر بأني من الامة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر ،
الجسور ، الحكيم ...

« عدت الى اميركا استصحب اللزومات وكنت ترجمانه هناك فساقتني المهنة
الى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين
الذين صوروا لي الحياة رحلة في الارض دأمة ، وصوروا الارض بادية عربية نبغ
فيها محمد بن عبدالله القرشي وامروء القيس الكندي ، الشعر والنبوة والدهناء ،
والواحات في بحار من ارمال ، والنخيل في الواحات يهمس في اغصانها النسيم
ويهز جزوعها السموم وصوت الساقية هي تغني للارض المنعمة في ظلال النخيل ،
وبنية البدو تغني للجمال الساقية .. وماذا في نيورك ؟

ماذا في نيورك غير الضوضاء والعناء والعياء والبلاء ؟

كان الريحاني في نيورك كالغريب بين شعب لا يعرف معنى السكينة ولا
الراحة ولا الجمال ، وجد نفسه بين قوم « يأكلون ماشين » ويقرأون آكلين ،
ويعدون النود راكضين ، ويعبدون الاوثان قائمين قاعدين ، بل يقدمون
ارواحهم واجسادهم نخبة لآلهة ما سمع بأسمائها في العصور الغابرة ، وقد عبر
فيلسوفنا الشاب عن هذه المرحلة من حياته بقوله : عشت زمناً بين قوم يقال
انهم مسيحيون ، ولكنهم في الحقيقة وثنيون — وثنيون بترفهم وبطرهم ، وثنيون
بأخلاقهم وشعورهم ، وثنيون بطامعهم واستئثارهم ، وثنيون بتعدد آلهتهم .. وبعد
ان يعدد هذه الآلهة يقول :

« واما هياكل هذه الآلهة واصنامها فأنت لا تشاهدها قائمة في الاسواق ،
بل ينبغي ان تنظر اليها بعين الروح فتراها في كل حي وجماد يتحرك هناك .
تعال اذن معي لأريك آلهة هذا الزمان الجديد ، آلهة هذا التمدن الحديث ،
تعال معي لأريك من الهياكل والاصنام ألواناً وأشكالاً .. فهذا صنم من القطن

✓ لا آله البورص ، وذلك صنم من الفخم لا آله المعادن .
وبعد ان يرمز الى هذه الآلهة التي يعبدها الامير كيون — آلهة المادة ،
يقول معبراً عن برمه ونجبره :

« لقد خرجت من هؤلاء المشركين طالباً في البرية ربي ابراهيم ، خرجت
من بينهم وانا على اعتقاد ان المرء اذا قرب من العالم الجديد يبعد عن الطبيعة
وعن الشعر وعن الجمال الروحي وعن الله ، ولذلك حولت وجهي الى مشرق
النفس وعدت في طريقي الى ارض الانبياء ، عدت الى وطني لاقترب من جمال
الشرق الشعري وجماله الطبيعي وجماله الروحي بل الالهي » .

وكانت نيورك نخبته بأضواءها.. ولكن لا يكاد يمكث فيها فترة حتى يضيق
بها ويعود الى وطنه الجميل ، الى وادي الفريكة ..

✓ ففي وطنه وجد هذا الجمال الذي نشدته نفسه ، ولكن هذا الوطن الذي
اغدقت عليه الطبيعة اجمل حللها يشكو الكثير من العلل والاوزاجع ، وطن يعيش
في جحيم الضلالات ، يرسف في القيود ، ينوء تحت كابوس ثقيل من الجهل
والعبودية — وطنه مصفد بالسلاسل والاغلال.. وقد آله اكثر ان يحرم العربي
من نعيم الحرية وهو الذي حطم الاصنام وكسر الاغلال في سبيل الحرية .

✓ اقلقه ان لا يتمتع الشعب العربي بحريته ، لذلك اخذ يرسل صيحاته من
الاعماق ، يرمز تارة ويصرح تارة اخرى ... هذه الصيحات هي مواد كتابه
« الريحانيات » وهي مقالات وخطب وشعر منشور في اغراض شتى اكثرها
اجتماعية ، وهي تهدف الى ذلك صروح الظلم وتقديس مبادئ الحرية ، وإشاعة
✓ الروح الديمقراطية بين الناس ، وفتح الطريق للامة العربية ان تنهض وتسير مع
الامم الكبرى جنباً الى جنب ، وتعتبر عن نزعات الريحاني الاصلاحية وتوثره على

✓
✓
المشعوذين من الحكام والكهان الذين اخذوا على انفسهم هداية الامة وما هم في الحقيقة سوى فئة مضللة لا تفكر الا بذاتها وخسيس مصاحفها .. وقد جعل شعاره في صيحاته هذه الكلمة الخالدة : قل كلمتك وامس .. فهو يقول ما يعتقد دون ان ينتظر رضاء هذا او غضب ذاك ، وهذه سمة المفكرين الاحرار الذين لا يتقيدون بقيد ويضربون التقاليد والاعتبارات بكثير من الجرأة والشمم ..

لست هنا في معرض تحليل آرائه وفلسفته لأجول جولة واسعة في هذه الناحية ، ولكن حسبي ان اقول وانا اشير الى «الريحانيات» — وقد صدر منها اربعة اجزاء وتعد مطبعة اخيه العدة لاصدار اربعة اجزاء اخرى — ان «الريحانيات» هي المادة الخصبة التي يستطيع ان يرجع اليها الباحث لدرس فلسفة الريحاني ، ودرس حالات التطور التي مر بها التفكير العربي ، في هذه الفترة التي سبقت اعلان الدستور العثماني بسنوات الى يومنا هذا ، نعم ، ففي مقالاته وصيحاته وخطبه ، يحدد الباحث مادة خصبة لدرس صور التطور في حياتنا العقلية ودرس حياتنا الاجتماعية بصورة خاصة ، والسياسية بصورة أخص : فقد رسم في هذه المقالات آلامه كممكر حر ونهجه في الاصلاح كمجدد ناثر .. واستطاع في هذه الفترة من حياته ان يضع بضعة كتب لفتت اليه انظار المفكرين ، في الشرق وفي الغرب ، فقد ترجم كما قلت ، طائفة من لزوميات ابي العلاء ، وأخرج ديوان شعر بالانكليزية ووضع رواية «المملكة الحيوانية» التي حطم فيها سلطة الاكليروس ودافع عن كرامة العقل ، وكتب رواية «خالد» واصدر الريحانيات ... وهكذا فقد استطاع وهو في العقد الثالث من عمره ان يبلغ مكانة مرموقة بين مفكري الغرب والشرق . وان يطلق عليه لقب « فيلسوف الفريكة » .

وقد رسم لنا الكاتب المصري الكبير الاستاذ محمد لطفي جمعة هذه الفترة من حياته بقوله :

« منذ عشرين سنة تقريباً » اقيمت امين الريحاني لأول مرة ، وكان اذ
 ذاك في مستقبل العمر ، في الفترة الفنية من حياته ، متخلفاً بأخلاق الكاتب
 الانكليزي السير اوسكار وايلد ، من حيث تنسيق الشعر وتصنيفه وفسداله على
 كتفيه ، وحلق الشاربين والمخمية ، وكان يدخن الغليون على الطريقة الاميركية
 فلما رأته كان يبدو في وجهه التشكك في كل شيء .. في حيلة الفكر والعقل
 والدين . وكان مثله كمثل السائح الذي لم يهتد بعد الى الطريق ، وكان قد
 كتب الفصول الاولى من كتاب « خالد » فقرأ لي بعضها فاعجبت بما جاء على
 لسانه من وصف احوال صديقه شكيب ، ثم شرح لي مشروعه في تأليف رواية
 تمثيلية باللغة الانكليزية يكون بطلها الامام علي وكنتي عن تأثير صوت المؤذن في
 ذهنه فعجبت من ذلك الذي هجر الشرق وسافر الى اقصى بلاد الغرب واكثرها
 ازدهاراً واهتماماً بالشؤون الغربية ، ومع ذلك فهو لم ينس أدق الاحساسات الشرقية .
 ثم قال « عرفت اميناً وهو لا يحسن اللغة العربية تكليماً فضلاً عن كتابتها
 لطول الشقة بينه وبين وطنه الاصلي ، وقدمت له نسخة من اول كتاب الفتنة
 فنظر فيه ، ثم قال لي : سأع انا ايضاً كتباً باللغة العربية ، ولم يكن امين
 ممن يعدون ويخلفون ، او يمزمون فيترددون ، فانه بعد بضع سنين قضاها زاهداً ،
 منقطعاً عن الناس في صومعته بوادي الفريكة أخرج للعالم العربي كتاباً من اجل
 الكتب ألا وهو الريحانيات ، فأثبت بكتابه هذا انه قد بر بوعده واتفق لغة
 القرآن اتقاناً يسمح له بالتحريير فيجاري اكبر الكتاب اسلوباً وسلاسة وسلامة
 منطق

— ٣ —

بقي الريحاني في لبنان سنوات بعد اعلان الدستور العثماني يكتب ويخطب
 ويرسل مقالاته الاصلاحية شواطاً من نار ، وكان يزيد في ألمه ان تظل الحالة

— ١٠ —

في البلاد كما كانت قبل اعلان الدستور . . . تغيرت المظاهر فقط اما الاوضاع الشاذة فظلت هي هي . . ولم يكن فيلسوفنا الشاب من اليائسين ، بل كان من المؤمنين بنزعة التطور وهذا الذي دعاه ان يعمل مع صفوة من المفكرين لمحاربة هذه الاوضاع وكنائهم كانوا يضعون نواة الثورة للتحرر من الادارة العثمانية التي لم تكن في عهد طلعت وانور ونيازي الذين اعلنوا الحرية والاخاء والمساواة احسن منها في عهد عبد الحميد . . . واخذت العنصرية التركية تعمل على خنق الحرية في البلاد العربية . . . والضغط على الكتّاب ، وكان الريحاني في معزل عن هذا الضغط ، بل كان ينعم في واديه بما لا ينعم به ابن المدينة . ويصف هذه الفترة بقوله :

وكان لي صديق في دمشق يجر قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التغلب منها ، كسرهما ذات يوم ، فأثار السلطة عليه ، صفع السلطة وقر هارباً الى الفريكة ، فحل فيها اهلاً ونزلاً سهلاً ، أقام محمد كرد علي عندنا اسبوعاً عدده من شوارد الزمن . الوادي مهد الحرية وحصنها الحصين ، سمعني صديقي اردد ذات يوم هذه الكلمات فقال : لا تنخدع يا امين . الوادي قريب من دمشق ومن بيروت ، وفي المدينتين للعبودية عميد وللظلم اسياذ رطديد . لا بأس بالهمس : والحمد لله : ولكنك اذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتتم عليه وعلي .

فقلت صدقت ، وفي نبي ان اخرج حتى هذا الوادي ، في نبي رحلة الى البادية ، الى البلاد العربية على هجين يبعدني عن كل مظلمة وكل عبودية فهلل صديقي وقال : نسير سوية ، واتفقنا يومئذ ان نستعين بتجار من نجد في الشام يعمدون لنا السبيل وبزودوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفوذ ، ولكن الايام عدوة الاحلام . . تأثرت السلطة الانيمة مديني كرد علي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكة ويفر هارباً من سوريا الى اوربا ، اما انا فقد طوحت بي الاقدار وأبعدتني ثانية عن الوادي وعن البلاد العربية كلها ، عادت لي الى نيورك .

عاد الريحاني الى بلاد الحرية ولم يكذب يستقر فيها مدة حتى شبت الحرب الكبرى
فأخذ يرقب تطورات الاحداث باهتمام بالغ ، وكم كان سروره عظيماً حين اذاعت
اسلاك البرق نبأ تمرد الملك حسين على الترك فقد اعتبر تمرداً بدء الثورة العربية
الكبرى فهلل لهذا الحادث وكبر وكان يكتب كل يوم مقالاً عن اليقظة العربية
وعن وحدة العرب ، وقد شعر من الاعماق ان عليه واجباً نحو قومه يجب ان
يؤديه وهو اذ لم يشترك في الثورة محارباً فليكن لقلمه هذا الميدان يصول فيه
وبجول اداءً لهذا الواجب القومي الكبير . . .

ومرت سنوات الحرب الكبرى وهو في نيويورك كتب خلالها اصدق النكات
القومية واجمل التأملات الذاتية ، فمن تأملاته التي تدل على نزعة الانسانية
الصافية مقالان احدهما عن الجوع والثانية عن الصوم صوراً فيها اثر المجاعة التي
هددت لبنان ، وقد دعا المهاجرين ان يصوموا يوماً واحداً يدفع كل واحد ما يوفره
في هذا اليوم اعانة للمتكوبين ، ولكي لا يقال انه يقول ما لا يفعل كالشعراء فقد
خلع ثوب الشاعرية ولبس صفات الانسان الكامل ، اي كان اول من امتثل
لدعوته ، فصام عن الأكل والشرب والتدخين ودفع نفقة اليوميين الى اللجئة ،
ومن كذاته التي هزت المشاعر قوله :

اخوان لنا هناك يعيشون في هوالين .. هوال المشائق وهول المجاعة ،
الفقير سيموت سغباً والغني يموت رعباً ، ونحن في هذه البلاد آمنون شر الاثنيين ،
يومنا زاهر وليلتا هنيئاً ، لا رعب يحرمنا النوم ولا جوع يحرمنا صفاء العيش .
صوموا يوماً واحداً وتصدقوا علينا بدولارين مما رزقتم ، الامة امتتنا جانية
على قارعة الطريق تنن من ألم الجوع — الجوع المدقع ، الجوع المهلك فهلا
تسارعنا بل تسابقنا الى اغاثتها .

وقد كان لمقالاته صداها العميق فجمعت مبالغ ضخمة ارسلت بواسطة جمعية

« الصليب الاحمر » الى الجائعين ..

وهكذا فقد كان الريحاني لا يترك مناسبة يخدم بها قومه الا اندفع وراءها
باخلاص .

— ٤ —

واذ كانت في طبيعة الريحاني ، منذ صغره ، نزعة التجوال والسفر في بلاد
الله الواسعة ، فقد مل الإقامة في نيويورك ، ورأى بعد ان قرأ كتاب ارفنج
واشفطون عن الجراء ان زيارة الاندلس اصبحت عنده من الفروض المقدسة ،
وقبل ان تنتهي الحرب بسنة شد الرحال الى اسبانيا لزيارة تلك البلاد حاجاً ..
فاذا رأى ؟ لقد بهرته وأبكته .. عاد منها وفي نفسه بهجة كمن شاهد اجمل
آثار الدنيا ، ودموع من فقد اجمل آثار الدنيا .. فبكى ذلك المجد الضائع بدم
القلب ومن كلماته قوله :

« طولول كانت بالأمس معاهد وقصورا ، وقصور كانت يوماً دائرة المجد
وقطب الجبور ، في قناطرها وقبابها وابوابها صناعة دقيقة نادرة ، وفي كل رسم
من رسومها آية جمال تدهش حتى اليوم ارباب الفن ، وفي كل بيت من الشعر
على جدرانها درة من المعنى ، او زهرة من التقوى منقوشة في بلاد منقطع
النظير لوناً وتذهيباً .

وصنائع الزليج في حيطانها والارض مثل بدائع الديباج
هذي آثار العرب وقد امست عروشاً لربة النسيان ، ومفناً لمجد الزمان ،
وظلالا تجلب الاحزان وعبرة بليغة للانسان ، وهي وان كانت كذلك ، بهجة
لناظرين ، ومصدر وحى لأرباب الفنون والمفتنين ، ولكن الذكري ، فيا لله من
ذكرى تفيض على النفس فتجعلها كالجماد ، لله من آثار تبهج لمراها العين

D

فيذوب لمعناها الفؤاد ، لله من بلد تغنت بمكارمه كل البلاد ، لله من عزك يا
ابن امية ، ومن مجدك يا ابن عباد ، اي عبد الرحمن والمنصور والمعتمد ، من
شادوا معاهد العلم والدين ، لقد طالما اهتزت النفس لذكر ما تركم وطالما وقفت
العين شغفاً عن اسمائكم في التاريخ ، ولقد طالما تاقّت النفس مني والعين الى
مشاهدة ما تبقى من تلك الآثار المجيدة ، وها قد استجيت طلبتي وتحقق اكبر
آمالي ، فقد وطأت ارضاً عطرته شمائل العرب وحملت بلاداً عمرتها همم العرب ،
ووقفت امام عروش هدمتها عصية العرب .

لقد كانت زيارته للاندلس من البواعث التي جعلته ان يؤمن بعمقوية العرب ،
وصار حبه لقومه من العقائد المقدسة . . .

من الاندلس الى بطاح مكة . . يقول الريحاني : « .. وقفت في الحرام ،
في الغرفة التي كتب فيها واشنطنون ارفعج كتابه النفيس ، فسمعت اصواتاً
تناديني باسم القومية ومن اجل الوطن ، وتدعوني الى مهبط الوحي والنبوة . . »
وظلت هذه الاصوات تعتلج في اعماق صدره الى ان وضعت الحرب اوزارها . . .

* * *

كانت الدنيا في تلك الفترة مأخوذة بمبادئ ويلسون الاربعة عشرة ..
مبادئ الحرية التي سفك العالم في سبيلها الدماء غزيرة . . . كان يحلم الريحاني
ان يرى اوطانه العربية متمتعة بـ بيادتها وحريتها ، ولكن تلك الاحلام سرعان
ما انهارت عندما كشر الغرب عن نايه ، نعم ، لم تكد تضع الحرب اوزارها
حتى تكشفت الوعود الجميلة والدعاوات الضخمة عن سراب خادع فالتمته هذه
النهاية اي ان تخيب الآمال وان تقع البلاد فريسة لاهواء ومطامع الدول القوية
التي كانت تحارب ، فيما تزعم ، في سبيل المبادئ السامية — اتضح له ان الحرية

وحقوق الأمم ما هي الا اسماء لا مسميات لها .

لقد كفر بمبادئ الغرب ، وضاعت روحه في نيورك : طليقة الهنود
بالأمس وعظيمة اليهود اليوم ، فاعتزم السفر الى الشرق . . . وكانت مصر أولى
العواصم العربية التي استقبلته ورحبت به ، اقامت له عشرات الحفلات التي اشترك
فيها اكبر مفكري العرب ، وقد اجمعوا كلهم على الاعتراف بفضله وبما اداء
للفكرة العربية من خدمات ، والتي هو عدة خطب كانت اجملها واقواها تلك
الانشودة السامية التي لخص فيها نزغاته الحرة والتي يقول فيها :

« انا الشرق عندي فلسفات ، وعندي أديان ، فمن يبيعني بها طيارات » .

وقد ايقن بعد ان رأى الحلفاء ينكمون بوعودهم ويخونون مبادئهم ويعيثون
بأقدس الرسالات - ايقن ان الصراع في الحياة طبيعي ، وان الفوز للقوي ، وان
الأمم التي لا تكون قوية في خصائصها المعنوية ومقوماتها المادية تكون عرضة
الموت والفناء .

- ٥ -

ومن مصر شد الرحال ، الى جزيرة العرب لزيارتها ودراسة احوالها
والاتصال بامرائها وملوكها وقبائلها ، وقد خرج من هذه الرحلة التي لاقى فيها
الاهوال بكتاب يعد بحق من أمن ما كتب عن الجزيرة العربية ، تضمن
الوصف الدقيق والتأمل العميق والدراسة الشاملة .

ولست السياحة في الجزيرة العربية من الامور السهلة لا سيما في تلك
الغروف ولرجل طاش في نعيم الترف الاميركي .

من اضواء المدنية ونعيمها الى الصحراء الموحشة وجيمها ! . . ولكن هي

- ١٥ -

الكتاب

عزيمة الامين الجمار ، فقد اعتقد ان في عنقه واجباً عليه ان يؤديه ، وآله ان يقوم الغربيون برحلات واسعة وان يكتبوا عن البلاد العربية المطولات وان لا يقوم اديب عربي بالاضطلاع بهذه المهمة وهم اولى بها . ولم تكن غاية الريحاني من رحلته هذه الدرس بقدر وغيمته في ازالة هذه الضغائن والاحقاد بين ملوك العرب ، ثم توحيد هذه الامارات في مملكة عربية واحدة . . كان يحلم بالوحدة العربية وهو في نيويورك ، وكان يتسالم ان يرى العرب متفرقين ، وان يكون امرهم في الجزيرة بيد الاجنبي يلعب بهم من وراء الستار .

وقد زار في رحلته هذه الحجاز واليمن والعسير ولجج والنواحي التسع المحمية كما زار بلاد نجد والكويت والبحرين والعراق زيارة دامت قرابة سنتين ذوّن فيها أدق ملاحظاته ودروس جميع المشاكل التي تواجه الجزيرة العربية لا سيما الروح القبلية التي تغطي على الروح القومية ، ولم يقصر دراسته على الملوك والامراء وشكل الحكم بل تناول طبيعة الجزيرة وطادات البدو وحياتهم الاجتماعية ، وهو كاتب الى اهتمامه بالموضوعية « ذاتي الاتجاه » في تدوين كل ظاهرة من ظواهر الحياة . لقد كتب كتابه بروح قومية وبنزعة ادبية وبهذه النظرة الفلسفية المجردة نجاء من اثنان ما كتب عن بلاد العرب . ويستطيع كل من فانه السفر الى تلك الاصقاع المجهولة ان يعتمد كتاب الريحاني فهو خير دليل للقيام بهذه الرحلة اللطيفة . والكتاب الى هذا ، صورة واضحة لحياة الجزيرة ومشاكلها من الفاحيتين السياسية والاجتماعية معاً . وقد كان قيامه بهذه الرحلة لونا من المغامرة . . واية مغامرة ؟ . . مرت به حالات رأى فيها الموت مرات ومرات ، ولكنه تحمل كل ذلك بصبر وخرج من رحلته قوي الايمان بأن صحراء الجزيرة العربية تضم الكنوز ، وانها ، اذا اتيح للعلم ان يستثمرها وان يوجه ابناءها هذه الوجهات القومية التي تأخذ من حضارة العصر نزعاتها المادية كان للعرب ان يلعبوا دورهم من جديد في تاريخ الحضارة .

بعد عودته من جزيرة العرب أوى الى قرية الجيلة ، الى الفريكة — الى ذلك الوادي الجليل يستجم ويرتاح من وعناء السفر ، ولكن الأمين لا يعرف الراحة ، ان حياته جهاد غير منقطع ، وكان يجد لذاته في التدوين والتأليف ، بل كان لا يمر به يوم دون ان يكتب عشرات الصفحات . فن محاضرة في منتدى ، الى خطاب مدرسي ، الى مقال نووي ، الى بحث هاديء في مجلة ، الى موضوع يشتمله كتاب ، وكأنه لم يبل غليله مما كتبه عن ابن السعود والمملك فيصل في كتابه « ملوك العرب » فانصف الى وضع كتابين عن هذين الملكين العربيين القويين اللذين سحرا بشخصيتهما . كتب مجلداً ضخماً عن تاريخ نجد ، اي عن الوهابية وابن السعود وكل ما يتعلق بنجد وملحقاتها ، كما كتب كتاباً آخر عن فيصل الاول تضمن تاريخ الثورة العربية والشيء الكثير عن خصائص فيصل فرسم بريشته الساحرة اجمل الصور عن هذا الملك العربي في مجالسه الرسمية وغير الرسمية ، في عمله وجهاده ، في جوه المضطرب وأفقه الهاديء . صور قلب فيصل في مده وجزره ، في مرحه وغمه ، في يقينه وحيرته ، بل في جميع ما يتنازعه ويتزاحم في صدره من العواطف والخواطر والآمال . . . واعقب هذا الكتاب بكتاب آخر عنوانه « قلب العراق » وهو من اوسع الكتب التي تناولت تاريخ القطر الشقيق في نهضته الحديثة ، وقد تضمن كثيراً من الملاحظات الدقيقة في السياسة والاجتماع والأدب ، ولم تفارق روح النقد سحبة الامين ، فهو في جميع فصول كتبه . هذا الناقد الفاحص الذي يبحث الامور بروح مجردة . وكان يعتمد في كل فقرة من فقرات كتبه ، الى التوجيه القومي والتهوض بالعرب جبارة الى اسمى مراتب الحياة . . .

— ٦ —

هذا ولم يترك الريحاني ، خلال هذه الفترات ، رسالته كمجدد ، فكان

— ١٧ —

يرسل الصيحة اثر الصيحة ، داعياً الى الاصلاح والثورة على المعتقدات البالية ،
وتحرير الفكر من غشاوة الاضاليل ، وله في هذا الميدان صرخات مدوية وقد
اصدر رسالة عنوانها « التطرف والاصلاح » هي صدى آراءه في اصلاح المجتمع ...
وقد فتح في احدى مقالات هذا الكتيب باب الاشتراكية على مصراعيه ، وقاد
قارؤه الى مشكلة المال والعمل والملاك والأجير بأسلوب رمزي. وقد صدرت هذه
الدعوة منه قبل عشرين عاماً ، اي قبل ان يكون هذا الموضوع في متناول
كتابنا كما هو اليوم . وهو إذ يدعو الامة في رسالته الى اعتناق مبادئ
الاصلاح يريد ان تجنح الى التطرف والى الثورة وان تنفض على كل ما يعيق
سيرها وتقدمها ..

« اني ادعوا الناس الى ثورة فكرية تذهب بما في الاخلاق والعادات والتقاليد
والعقائد من فساد وسخافة وعفونه وضلال ، الثورة الادبية قبل الثورة السياسية
والثورة الروحية قبل الثورة الاجتماعية .

« لو كانت هذه الانسانية مرنة في معقولها ومفهومها لاثرت فيها الحكمة
والاعتدال تأثيراً حسناً سريعاً اما وهي متراحة متراسة ، بطيئة الحركة ، كشيعة
الذهن والاحساس ، مثقلة بتقاليد وخرافات اقدم من اور الكلدانيين ، فلا بد
من استخدام الالغام والمدافع في استنهاضها واستحثانها ، لا بد من الخسارة تهزها ،
ومن الاهواء الاصلاحية تهيج اعصابها ومن خمر الحرية يشعل في عروقها نار
المهوس والمغامرة

« لا بد من التطرف يفضيها ، فيستفزها ، فتنشط في الاقل الى محاربة
المصلحين وتستفيد من مجرد الحركة والمقاومة .

« وانك لتشهد التطرف حتى في الكائنات ، وفي نواويس الطبيعة فاما معنى
الزلازل اذاً والبراكين والسيول والظوفان ، والامراض السارية ؟ وان في تاريخ

الانسان لما نسميها الثورات والحروب .

« ان الثورة مطهر الامة وقد ثارت على ما فيها من الظلم والفساد ، ان الثورة مطهر الانسان وقد ثار على ما في نفسه من قديم التقاليد والخرافات ومن لا ينور على ما في نفسه ، لا ينجو من العبودية ولا حق له ان يشكو العبودية .

« اتنا ، ايها السادة والسيدات لمن افصح الشعوب لسانا ، وأغفاهم بياناً ، فلا عجب اذا كثرت في بلادنا المهن الحرة ، اي المهن المهيمنة ، لا عجب اذا كثر فيها الادباء والمحامون ورجال الدين وكلهم يسارعون الى خدمة الامة ، كلهم يدعون حبها ، كلهم يتبارون ويتفانون في سبيل اسعادها ، ولكنهم ، غفر الله ذنوبهم ، اخطأوا السبيل ، فلو حملوا المعاول او البنادق لكانوا أخص وأشرف في عين الله والناس » .

وهكذا كان لا يفتأ يدعو الى الثورة في كل شيء لتبلغ الامة مكانتها السامية في جبين الدهر وقد كان في جميع مباحثه هذا المجدد الثائر الذي يرمي الى الواقعية في غربة احداث التاريخ ، في كتابه « النكبات » وقد اثار صدوره نجة لدى بعض المفكرين الذين يعيشون في احلام الماضي — اراد ان يهن الوسنانيين ليمواجهوا الواقع ، كتبه بروح من الاخلاص والحب لقومه ، وقد سرد فيه النكبات التي نزلت ببلاد الشام من العهد الاول بعد الطوفان الى يومنا هذا وكيف ان سوريا كانت مستهدفة في اكثر العهود لغزوات القاطنين . . . لقد اراد الريحاني ان يوجه الشباب الى الاهتمام بمشاكل الحاضر ، ان يكونوا واقعيين في هذا العصر الذي يتطلب من الاعم التي تريد التحرر ان تواجه المشاكل بكثير من القوة وفي ضوء من حقائق الحياة ، واخيراً اراد الريحاني ان يستفيد السوريون ، في عهدهم الجديد ، من عظات التاريخ بما يجعلهم اسبياداً لا عبيداً . . .

« اقرأوا التاريخ منزهين عن الاغراض مجردين عن الاهواء . . .

« اقرأوا التاريخ لتدركوا المب فيه ، وتنسوا اذ ذاك قريضة وقوافيه ... »
« اقرأوا التاريخ متفهمين روحه وروح ابطاله ، فتودون اذ ذاك ان تنسوا الماضي .
« انسوا الماضي السوء غير آسفين .

« ظفر الميت خيال لا يفيد ، وما حك جلدك مثل ظفرك .
« اذن تعالوا نتفاهم ، فننالف ، فنتضامن ، فنتحدد في سبيل الوطن بل
في سبيل الحياة .

« تعالوا نكتب صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد .

كان الريحاني يوجه الشباب في كتابه هذا الى دراسة الماضي بنزعة حرة
وبروح ايجابية لئلا تظل عيناه مغمضتان في عصر تقوم فيه نهضات الامم على
الكفاح والنضال لا على التغبى بمفاخر الاجداد وهو غناء أشبه بالانين والبكاء .

- ٧ -

لقد رأينا من تطور حياة الريحاني — وحياة مندمجة اندماجاً كياً بهذه
الكتب التي أصدرها — ان هذا الاديب قد عاش حياته كلها في عالم الفكر ،
تأثراً على الكهنوت ، تأثراً على الجهل والتعصب ، مؤمناً بالحرية ، داغياً الى
التساهل الديني ، موجهاً الامة الى الحياة الحرة ، كان يرمضه ان تسير الامة في
مضمار الحياة وان تظل بلاده تسكع في هذه الدايجير المظلمة من العنقعات المذهبية
والطائفية وان يكون ذلك سبباً لسيطرة الاجنبي .

وقد ظل الريحاني سنوات يراقب في عزله في الفريقكة نضال الامة السورية
ونضال الاحرار في لبنان ضد ابالسة الاستعمار ، وكانت فرنسا من القوة والجهروت
بمكان عظيم ، وكان الكتاب يعالجون القضية بكثير من الدقة والحذر ، وكان
اكثرهم يلجأ الى التلميح اكثر من التصريح ، وقد عرف الادب الصحفي هذا

المون من الادب الرمزي على غير قصد منهم ، اي كان ادب الصحفيين يدور حول المقصد دون ان يجابه الحقائق الا من وطد نفسه ان يكون ضيف المنافي والسجون ، وكان الريحاني خلال هذه الفترات يدعى للكلام في النوادي والمؤسسات الادبية ، فكان يعالج القضية الوطنية بكثير من الجرأة ويندد بجرائم الانتداب بروح من التهمك والسخرية ... كان يرمز تارة ويصرح تارة اخرى ، وقد ضاق به الافرنسيون وأذروه اكثر من مرة .. ولكنه لم يعبأ بتهديدهم وانذارهم ، وكما تبادوا في طعناتهم تبادى هو بالتثديد بسياساتهم المعوجة ... في الرابع والعشرين من كانون الاول ١٩٣٣ دغته جمعية التضامن الادبي في بيروت لاقاء خطاب في حفلة من حفلاتها العامة ، فاعتذر ثم لبي الطلب ازاء الحاح اعضاء الجمعية ، والقي خطاباً عنوانه « بين عهدين » كان شواظاً من نار ، قارن فيه بين العهد الحميدي وعهد الانتداب ، فكان لهذا الخطاب رنينه الداوي في البلاد ولم تجسر الجرائد على نشره ، فتلعبه الشباب الاحراء بصورة سرية ووزعوه بالثلاث والالوف ... وقد يكون من الامانة للتاريخ ولسيرة الريحاني المناضل في سبيل الحرية ان نورد فقرات من ذلك الخطاب الذي يصور ناحية من مآسي الانتداب في تلك الايام السود ، قال الريحاني :

(من عهد عبد الحميد قد انتقلنا الى عهد عميد البعل ، من ظلم ظاهر الى ظلم خفي ، من ظلم مختل الى ظلم منظم ، من ظلم يحمل القنوت والكرباج فينتقيهما الناس ، الى ظلم يحمل الدساتير والمعاهدات فيقعون في اثمراكماء ، من الجاسوسية الحميدية قد انتقلنا الى دائرة الاستخبارات الانتدابية ، من الباب العالي المشرف على مرمره ، الى الباب الأعلى ودونه مرمرات ...

» من عهد عبد الحميد قد انتقلنا الى عهد عميد المال ، من استبداد مكشوف معروف الى استبداد مقنع مصنع ، من استبداد صريح الى استبداد بمره ، من

استبداد باسم البادشاه، الى استبداد باسم عصبة الاعم، من استبداد بمنح الامتيازات
ليدفع ديونه الاوربية ، الى استبداد يستثمر الامتيازات ويستأثر بها ليزيد ثروته
ويفقّر البلاد ، من استبداد يفرق ويسود لمجد الدولة ، الى استبداد يفرق ويسود
خير الاستعمار .. من عهد عبد الحميد ، الى عهد الانتداب ، من عبودية ادبية
روحية ، الى عبودية اقتصادية مادية ، من عبودية تحسن السكوت ، الى عبودية
لا تحسن غير الكلام ... من سياسة المستقيمين في تفاههم ، الى سياسة المنافقين
في استقامتهم ، من قوانين ونظم ثابتة ، الى نظم وقوانين تتغير كل يوم ، من
ذل في ابواب القناصل ، الى ذل في ابواب المستشارين .

« كانت البلاد السورية واحدة من معان الى جبل طوروس ، فصارت
اربع دولات عظيات مستقلة الواحدة عن الاخرى، وكلها تن من كابوس واحد ،
من الميزانية ، كلها على وشك الافلاس ... دولات ، دويلات ... القاب
مملكة يجدها هؤلاء الفرنسيين في آخر الزمان ... وتشفوا ايها الناس وجوعوا
لتمسكنوا من دفع الضرائب ، وسبحوا بعد ذلك باسم الدستور بل باسم الدساتير
والبرلمانات ..

من عهد عبد الحميد الى عهد الفرنسيين ...

والخطاب كله على هذا الوتر او على هذا النغم الذي ازعج الفرنسيين واقض
مضاجع اذنانهم قدسوا عليه وهددوه وكانت النتيجة ان اصدرت السلطة الفرنسية
امرها باخراج الريحاني من البلاد بحجة انه اجنبي — وكان يحمل الجنسية الاجنبية
بحكم مهاجرته — ماذا ؟ امين الريحاني اجنبي .. لقد صرخ في وجههم قبل ان
يتصاع لأوامرهم الباطلة ، هذه الصرخة الداوية :

« ... انا المولود بالفريكة ، في قضاء المتن ، في قلب هذا الجبل المدفونة
فيه عظام اجدادي .. انا الاجنبي .. وانتم .. اني استغفر الله لكم .. !! »

وظل في وطنه كما كان لا يترك مناسبة دون ان يندد بسياساتهم المعوجة
التي كانت ترمي الى جعل البلاد مستعمرة من مستعمراتهم الدليلة التي تقاسي اشنع
الوان الذل والموت والهوان .

- ٨ -

بعد هذه الفترة الطويلة التي قضاها في لبنان من عام ١٩٢٢ الى عام
١٩٣٧ عاد الى اميركا وهناك اخذ يتابع رسالته السياسية في سبيل القضية العربية،
واجتذبه بصورة خاصة قضية فلسطين . وقد يكون الريحاني اول عربي رفع
صوته في اميركا ، دفاعاً عن عروبة فلسطين ، وقد انتهت عليه الصحف
الاميركية ومحطات الاذاعة التي يسيطر عليها الصهيونيون بالسباب والشتم، وارادوا
ان يفتدوا حججه باباطيهم ومغالطاتهم . . . ولكنه لم ييأس فخطب كثيراً واذاع
عدة اذاعات ، وناقشهم برصانة وحكمة كما كتب الكثير من المقالات في الصحف
غير الخاضعة لسيطرة الصهيونيين ، وبعد ان اقام سنتين في اميركا يشرف على
طبع كتبه بالانكليزية زار في اوائل عام ١٩٣٩ المغرب الاقصى فاحتفلت به
السلطات الرسمية والهيئات الشعبية ، وقد تغفل في هذه المنطقة المغربية العربية
للدروس والبحث فقابل فرنكو كما قابل الخليفة مولاي الحسن وتحدث الى الوزراء
والزعماء والاساتذة وجميع طبقات الشعب واستطاع ان يجمع معلومات ضافية عن
اخواننا العرب في تلك المناطق المنكوبة بالاستعمار وكان ذلك مادة كتابه عن
المغرب الاقصى ، وقد حرص وهو في ضيافة الاسبانيين ، ان يثير الروح العربية
في قلوب اخوانه وأبناء عمومته وان يعود بأحدثه مع المفوض السامي الاسباني
الى اثر العرب في اسبانيا ، فبهذه بوفرة معلوماته . . وما كان من المفوض السامي
الا ان اتى خطبة في حفلة تكريم الأئمين أشار فيها الى اثر الحضارة التي تركها
العرب في اسبانيا . وصرح باسم فرنكو بأننا « لسنا نرغب فقط في ان نبعث

قرطبة وفي ان تعود العربية لغة الثقافة العالمية كما كانت في العصور الوسطى ، بل اننا لنحلم بايجاد وثام وتضامن وعلاقات وثيقة بين الثقافتين اللاتينية والعربية وتفكر في احداث تناسب وتناسق بين الاسلام والنصرانية ، فالشعب العربي كان اكثر الشعوب تسامحاً ، وكان تساهل وتفاهم حينما كانت العربية هي التي تحكم في البحر الابيض المتوسط »

وقال له فرنكو : انه موطد النفس على تأسيس مكتبة عربية في احدى عواصم الاندلس يجمع فيها المخطوطات العربية ، فتكون تلك المكتبة محط رحال العلماء والمؤرخين وكل مشغول بالعلم والادب من العرب والاسبان .

ومع ان الاسبانيين قد اضافوه ومنحوه ارفع وسام ، وسموه مديراً شرقياً لمعهد الدروس العربية فكل هذا لم يمنعه ان يقول الحقيقة صريحة وان يكشف لنا في كتابه « المغرب الاقصى » — وقد نشر بعض فصوله — اشياء غاية في الخطورة عن اخواننا العرب ، أحفاد الاندلسيين ، في تلك المناطق المحكومة بالحديد والنار ..

فالريحاني ليس ممن يخذعون بوعود السياسيين ، ولا يؤخذ بمظاهر التكريم دون ان يقول كلمته صريحة .

ومن المغرب الاقصى عاد الى لبنان — رجع الى الفريكة — وكره الجليل ، يتأمل الطبيعة ويكتب تاريخ لبنان — تاريخ هذا الجبل الاشم الذي ابته واضفى عليه من خلوده اجل الحلال .. ومن لجمال لبنان وأمجاده ومفاخره ان يكتب تاريخه على عمر الاجيال والعصور غير فيلسوفه الامين ..

وقد كتب مئات الصفحات عن لبنان بعد ان قام في ربوعه برحلات متتابعة ، منذ اربعين عاماً ، مشياً على الاقدام وركوباً على ظهور الحمير والبغال ، اي قبل ان تصبح الطرق مسلوكة ، كما هي عليه اليوم ، وقد اراد الريحاني

من زيارته هذه ان يعرف وطنه حق المعرفة بسهوله ووديانه ، بجباله ومرتفعاته ،
وان يقف وقفات طويلة عند كل بقعة وان باحثاً منقياً متأملاً . و اراد ان يدرس
الخلق اللبناني والكرم اللبناني والخصائص اللبنانية في جميع مناطق الجبل — في
شماله وجنوبه ، في شرقه وغربه — وقد زار ، كما اشرت ، اكثر تلك المناطق
قبل ان تغزوها مدينة الغرب وبعد ان غمرتها باضوائها الفاتنة ، فوصف هذه
المفاوقات بأسلوب هو السمو في التحليل والنفاذ الى الاعماق ، **الريحاني** اديب
قوي الملاحظة يعرف كيف يصف الطباع والعادات وخصائص الخلق والسجايا ،
فهو ينتقل من الوصف الى التحليل الى البحث الى التأمل ، وقد يهبط مع
قارنه الى المنحدرات ليصف سداجة القرويين ثم يرتفع الى القصور المترفة لينقد
هذه الميوعة في الاخلاق ، وقد يهزأ بالتاريخ ليروي الاساطير بأسلوب شعري .
والخلاصة ان الريحاني لم يترك ناحية من النواحي التي تميز لبنان الا عرض لها
بالوصف وبجد القارئ في جميع فصول كتابه هذه المنفعة التي تأخذ القارئ
بسحرها وكأنه يقرأ قصة من أروع القصص .. و كأن الريحاني، اراد ان يختم
حياته الادبية بعمل فذ فكتب هذا الكتاب الذي يصوره اجمل تصوير .

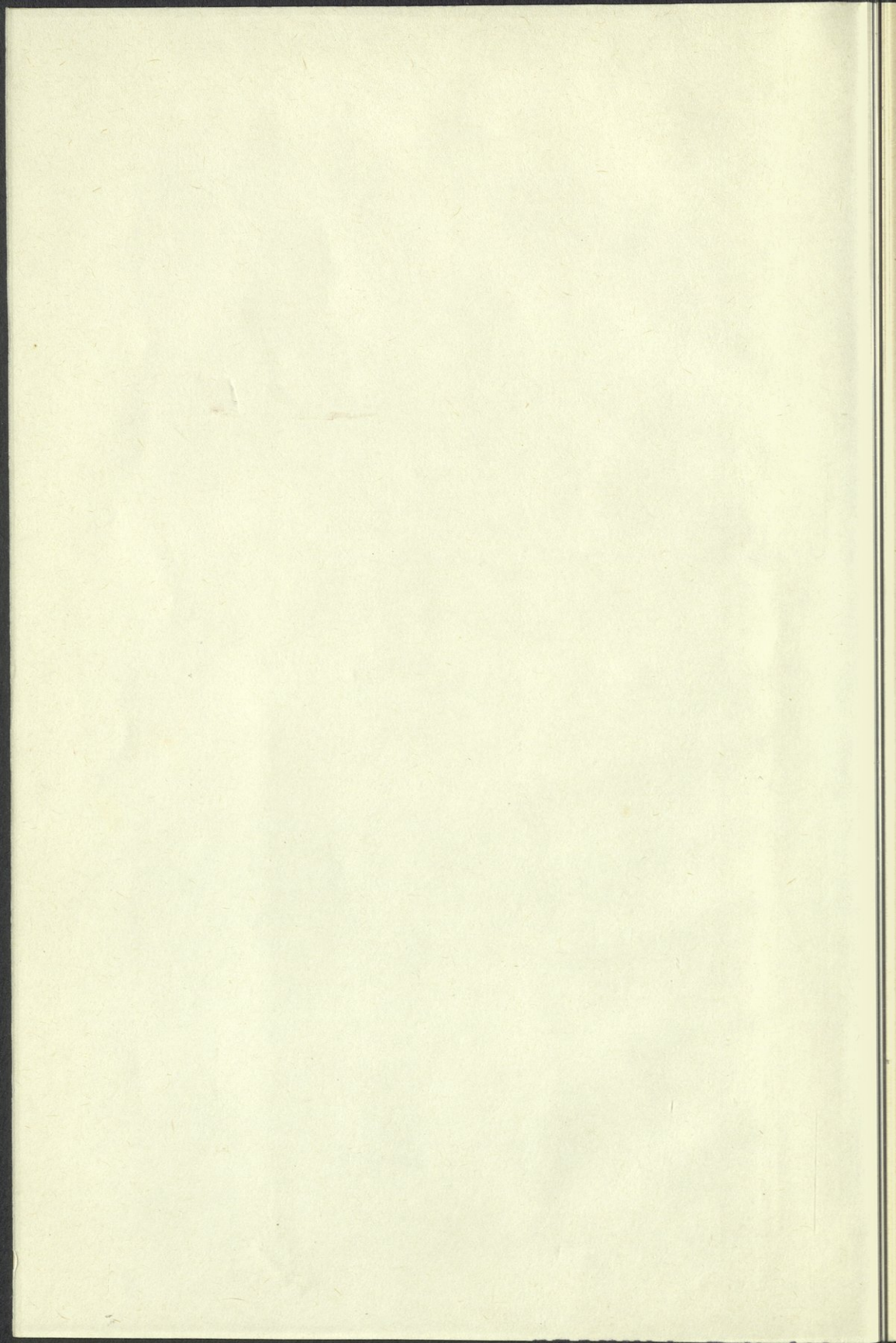
* * *

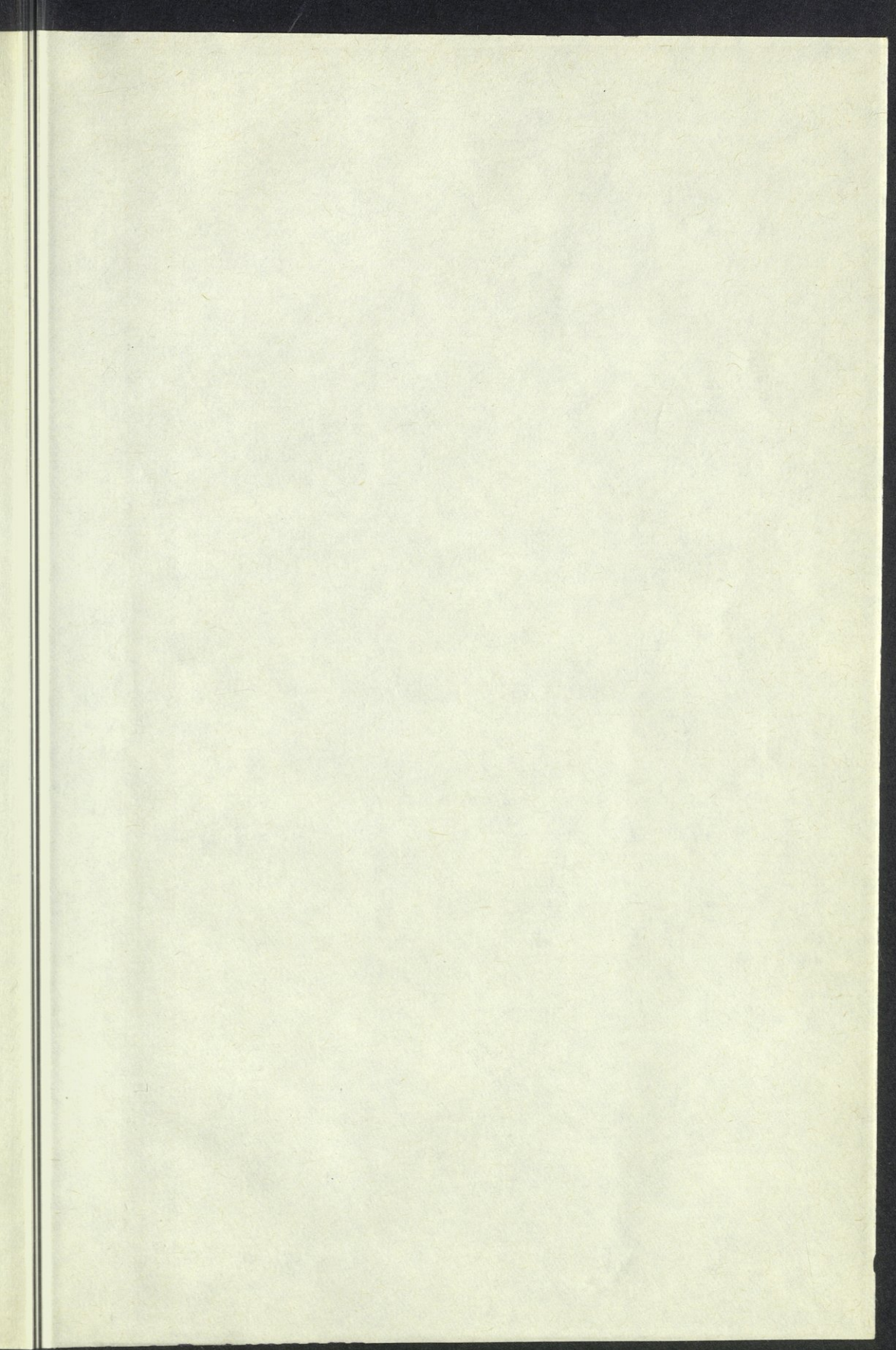
كان الريحاني يتمتع حتى آخر حياته بصحة جيدة ونشاط محمود ، كان لا
يشكو شيئاً .. ولكنه هو القدر ، فقد انطفأت تلك الجذوة المشعة التي لم تعرف
الخمود ، فروعت البلاد العربية في الثالث عشر من شهر ايلول سنة ١٩٤٠ فقد
هذا الكاتب المفكر والاديب الحر الذي ترك ثروة ادبية هي سجل واضح لتطورنا
الفكري في هذه الفترة التي مرت من اواخر القرن التاسع عشر الى منتصف
القرن العشرين ...

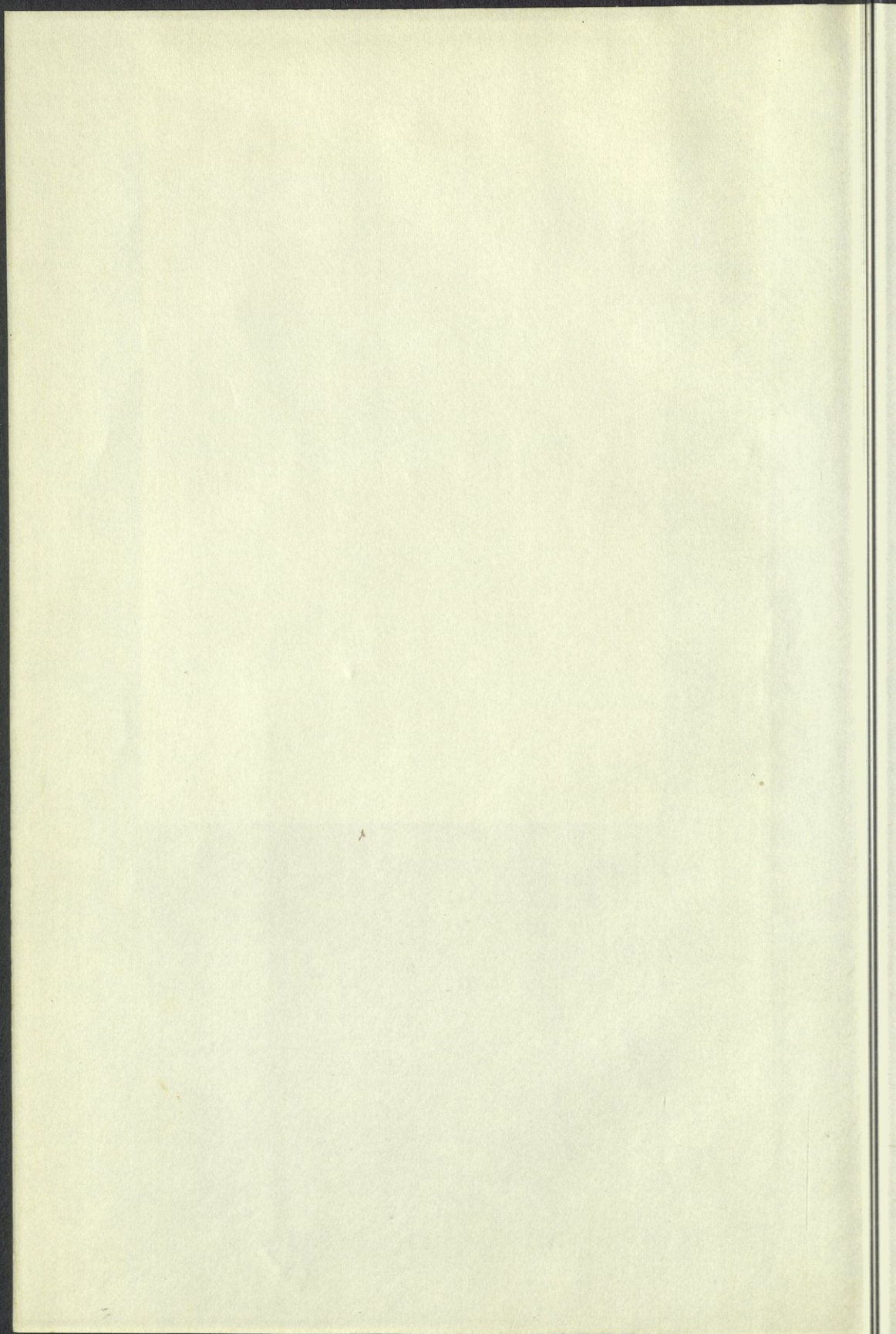
واقف عند هذا الحد ، وما قدمته ليس الا لحث سريعة من حياة فيلسوف
الفريكة ولم اعرض لكثير من آرائه في الحياة والادب والاجتماع ، فلامين
الريحاني جوانب كثيرة جديرة بالدرس : حياته الفكرية ، اتجاهاته الروحية ،
آراؤه الثورية ، نزاهة التقديمية ، مقامه كأديب مصلح ، جهاده القومي في
السياسة العربية ، وهذا كله يحتاج الى اكثر من دراسة واحدة ، فقد كان
رحمه الله ، اكثر ادبائنا انتاجاً ، وقد يكون الوحيد بين المفكرين الذي انصرف
الى الحياة العقلية يعيش في ظلالها ، يكتب ويؤلف وينتج بدون انقطاع ، وقد
ترك ما يقرب من خمسين مؤلفاً وترجمت كتاباته الى ما يزيد على خمس عشرة
لغة ، وهذا ليس بالشيء القليل ، وليس من السهل ان أخلص في صفحات
معدودة جهاد خمسين سنة في ميادين الادب ، وكل ما ارجوه ان اكون اعطيت
القارئ صورة صادقة عن ادب معاصر لعب اكبر دور في حياتنا العقلية .

سامي الكيالي







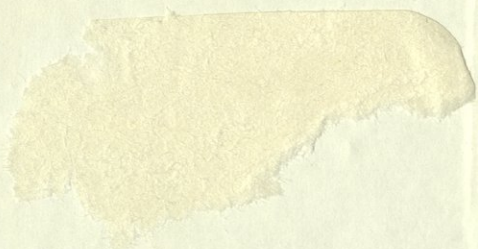


A circular postmark with a scalloped edge. The text "05 DEC 2001" is prominently displayed in the center. Below it, the word "Circulation" is partially visible. The word "Dep" is also visible at the bottom. There are small star-like symbols on the right side of the circle. The postmark is stamped on a white sheet of paper with horizontal dotted lines and a vertical solid line.

A.U.B. LIBRARY

892.74:R26YkaA:c.1
الكيالى، سامى
امين الريحانى
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

01039172



892.78
R572YKA
C.I